

"دعاء الكروان" في ضوء المناهج الواقعية

أ. د. صلاح الدين تارك *

إن "دعاء الكروان" صورة رائعة لأسرة فقيرة ذات الطابع المصري كافحت من أجل تحسين حالتها السيئة وتحررها من قيود وربقة مجتمع عدواني قاهر، غير أن محاولتها لم تمنحها نجاحا كاملا بل على العكس حرمت عليها الحقوق البسيطة أيضا مثل حق الحب وحرية العيش والسعادة حتى التطلع إلى شريك الحياة بحيث فشلت البنت الكبرى من خلال محاولتها وزلت قدماها فقتلت ودفنت أمام أمها واختها الصغرى. غير أن البنت الصغرى نجحت إلى حد كبير بعد أن واجهتها مصائب عديدة. وقد جعل المؤلف هذه البنت بطلّة الرواية وراويّة لسردها معتقدا بأن تساعد هذه الطريقة في جعل روايته هذه أكثر واقعية وأعظم منطقية على حد تعبير بول فرغيس^٢ (Paul Verghese).

إن أحداث هذه الرواية مستوحاة من قصة واقعية حدثت في إحدى القرى البدوية المتخلفة "بني وركان"^٣ وهي قرية قريبة من "مغاغة" القرية التي ولد ونشأ فيها مؤلف الرواية الدكتور طه حسين. كانت هذه القرية معروفة بجهلها وحمافتها. قتل أهلها رب الأسرة الفقيرة المذكورة بسبب مخالفته لقوانين القبيلة التي سببت العار للقرية على حد تعبير أهلها والذين قزروا التخلص من الأسرة كلها المشتعلة على الأم "زهرة" والبنت الكبرى "هنادي" والبنت الصغرى "أمّنة" حتى طردوها بدون أي شفقة ورحمة. فقد عرضت عليهن الصعوبات والمشكلات التي لا حد لها. إنهنّ بدأت ينتقلن من قرية إلى قرية ومن ضيعة إلى ضيقة حتى بلغن المدينة الواسعة حيث أخذن يعملن في خدمة بعض البيوت. الأم بدأت تعمل في بيت بعض الموظف واستأجرت حجرة متواضعة حيث كانت تلتقي فيها ابنتها مرة في الأسبوع. أخذت البنت الصغرى تعمل

* الأستاذ في قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة كشمير، سرينغر

في بيت المأمور حيث كانت تجد لذة ومنتعة بصحبة بنت المأمور "خديجة" التي كانت تمنحها كثيرا من البر والحنان حتى قامت بينهما مودة خالصة. وبذلك أصبحت آمنة شبه صاحبها ثقافة وتعلّما حتى تغيرت شخصيتها تغيرا تاما. أما البنت الكبرى "هنادي" فأخذت تعمل في بيت مهندس الري الذي اعتدى عليها وأحبلها. فإذا عملت الأم عن أمرها شعرت بحزن قاتل ولم تجد سبيلا إلا إلى ترك المدينة مخافة من العار والزلة فارتحلن إلى مدينة أخرى محزونات وبائسات. وإن لم تحب آمنة أن تخطف عنها لذة ومنتعة بيت المأمور لكنها في نفس الوقت لم تكن تريد أن تتفرق عن أمها وأختها فاضطرت إلى الارتحال، غير أنها كانت محيرة عن القرار المحزن الذي سلب منها راحة بيت المأمور ومنتعتها. إنها لم تكن تجرؤ أن تسأل أختها أو أمها عن هذا الأمر، ومع أنها عرفت كل ذلك بكون أختها منعزلة وحركاتها وحركات أمها.

جاء ذات يوم "ناصر" أخوزهرة من قريته بعد أن أرسلت هي إليه رسالة فذهب بهن إلى الصحراء حيث أعمد خنجره في صدر هنادي وقتلها ثم دفنها في الحفرة التي كان قد حفرها من قبل. وبعد ذلك أمر أخته وابنتها بأن لا تفشيا السر بل تلعنا أن هنادي قد ماتت بالكوليرا. وبعد ذلك إنه مضى بهما إلى القرية التي كانت قد طردن منها منذ حين. فغلبت على آمنة دهشة وخوف بسبب سلوك أمها وخالها حتى بدأت تتنفر منها وتتفكر عن ذلك المهندس الذي أغوى أختها وسلّمها للموت. فكل هذا أثار في نفسها شر الانتقام نحو المهندس، وذات يوم فرت من البيت متوجهة إلى بيت المأمور ناوية الانتقام والثأر منه. فبمساعدة "زنوبة" الدلالة أخذت تعمل في بيت المهندس، غير أن اشتهاه العادية قد تحوّل إلى الحب بعد أن عرف أن آمنة ليست مثل الأخريات اللواتي عملن عنده واللواتي كان يتخذ منهن أدوات للهو واللعب. فإنه بدأ يحبها وأخذ يحس أن لا حياة له بغير آمنة. وقد قرر التوبة والزواج منها حبا لها وندما على الأخطاء التي ارتكبتها. فالحب من جانب المهندس أبعد من قلب آمنة عزيمة الثأر والانتقام ونهى مكانها زهور الحب والخير. وقد ازداد حبا إلى أن زال عنها ذكر أختها المظلومة حتى انتقلت مع هذا المهندس إلى القاهرة حيث تزوجت معه وأصبحت من سيدات المدينة

المحترمات. وقد بدلت اسمها بـ "سعاد" لأنه اسم جميل من الأسماء المتطرفة.^٤
 إن دعاء الكروان دعاء شعري جميل مشتمل على ألفاظ ساحرة خفيفة عذبة
 تردده بطلاة الرواية في مواقف حاسمة فيحضر لها هذا الطائر كلما يشد لها الأمر
 فتلقاه بنفس الكلام الشعري الساحر الذي إذا استمع له القارئ يحس كأنه أوى إلى
 واحة ظليلة. ومحور هذه الرواية الواقعية تلك الفكرة التقليدية التي هي سمة رواية
 رومانتيكية ذات طابع ميلودرامي، وهي فكرة الفتاة الفقيرة التي تتطلع إلى هوى من هو
 أسمى منها مركزا وأوفر حظا من الثراء، فإما تموت بريئة كما حدث لهنادي وإما تنتصر
 كما انتصرت أمنة. ولا مفر لنا من أن نعترف بأن قدرة طه حسين الفنية ترتفع بهذا
 الموضوع الميلودرامي إلى مرتبة من التعبير أنضج وأعمق، غير أن ملاحظة الأشياء غير
 المنطقية سببت ضعف ذلك الفكر الذي أدى المؤلف إلى كتابة هذه الرواية وهو طرد
 الأم مع ابنتها الطاهرتين من القرية بدون أن يرتكبن أي إثم.^٥ وهنا يمكن لنا أن نكرّر
 قول المؤلف الذي يمكن أن يخفّف شدة هذا النقد إذ قال:

" فكان أهل القرية ومن حولها يميلون الألف قليلا ويذهبون بها نحو
 الباء، فما أسرع ما أصبح سبة وعارا يعاب به أهل القرية. وكيف لا وقد
 أصبح اسمها "بين الوركين" وما أسرع ما أصبح أهل القرية يستحيون
 من اسم قريتهم ويكرهون الانتساب إليها، ولا سيما حين كانت تدفعهم
 حاجة البيع والشراء إلى أن يهبطوا المدن. فقد كان اسم قريتهم لا يذكر
 إلا أضحك الناس وأجرى على ألسنتهم مزاحا كثيرا ثقيلًا، محفظًا لنفس
 البدوي الذي لم يتعود دعاية القرويين وأهل الحضر"^٦

بالإضافة إلى ذلك عندما تبلغ الزلة والفضيحة حدا لا يحتمل فعندئذ لا تعتبر
 صدور مثل هذه الأفعال عجيبا. ومع كل ذلك هناك بعض الأحداث التي تفتقر إلى
 واقعية الحدث بل لقد تنمو بسببها في نفوس القراء دهشة واضطراب، مثلا إن الخال
 القاسي "ناصر" من الذين طردوا هذه الأسرة البائسة من القرية، وبعد ذلك يعود هذا
 الخال إليهم لينذهب معهم إلى نفس القرية، وفي طريقها إنه قتل ابنة أخته من أجل

العار والوقار. فكيف يمكن له أن يترك أمانة تعيش مع المهندس وتزوج معه^٧. وكذلك لم يذكر المؤلف اسم القرية التي حدثت فيها معظم أحداث الرواية كما أنه لم يكشف لنا متى حدثت هذه الحوادث. فإذا نعترف بأن هذا بقي طريقة المؤلف في أكثر مؤلفاته لكن فقدان اسم البيئة الزمانية والمكانية على نقيض الفن الواقعي الذي اشتهر به موضوع رواية "دعاء الكروان" وكذلك إن المهندس الذي هو من أهم شخصيات الرواية بقي غير مسمى^٨.

ومن الأشياء التي أثرت واقعية هذه الرواية هو منح المؤلف قدرا كبيرا من الوعي بالنفس والغير بعد أن ساق الرواية على لسانها. فلا غبار على هذه الطريقة لكن على شرط أن يُراعى المنطق والفن الواقعي. على رغم ذلك لا تبرير لجريان هذا الأسلوب الذي عرف به عميد الأدب العربي، على لسان فتاة محدودة الثقافة وبسيطة الحظ من المستوى الأدبي. فلا نظن صدور ذلك التحليل لشعورها نحو المهندس، الذي صدر عن فتاة ساذجة لا تعرف أن هناك لهجة أخرى غير لهجة مصر،^٩ اللهم إلا حاول الدكتور علي الراعي أن يحقق منهج المؤلف هذا قائلا إن هذا الوعي المفرط الذي منحه المؤلف "أمانة"، سمة من سمات الفن التجريدي وهو وسيلة فنية تكشف الشخصية وتوضح دورها في الحركة الفكرية للعمل الفني. فليس فيه ما يناقض واقعية الرواية التي يساق عنها الحديث.^{١٠}

بالإضافة إلى ما ذكرنا آنفاً أن في هذه الرواية بعض الأحداث الفرعية التي إذا حذفت لا يتأثر تسلسل الأحداث على حد تعبير الدكتور محمد مندور،^{١١} غير أن الأكثر يعتبرون هذه الأحداث منطقية وموفقة مع موضوع الرواية. فطه حسين أديب باهر يعرف أنه من واجبه أن يقف نحو مجتمعه موقف مصلح اجتماعي وكان هدفه في تقديم هذه الأحداث التي اعترض على تقديمها بعض النقاد، أن يتعظ بها الناس لكي يكفوا عن سفك الدماء ويتجنبوا شر القتل بحيث انتقد تصرفات بعض الشخصيات انتقادا عنيفا كوصفه حياة زنوبة مع زوجها بأنها عيشة تنكرها الأخلاق والدين على السواء. وكذلك وصف المؤلف نشاط نفيسة الدلالة والجاسوسة التي كانت تستخدم

بعض النساء في كثير مما يشغل حياة المرأة الجاهلة الساذجة التي لا تزال تؤمن بالخرافات والأوهام.^{١٢} فإذا اعتبر بعض النقاد مثل هذه الأحداث وغيرها غير ضرورية معتقدين بأن استقامة الرواية ممكنة بدونها^{١٣} إلا أننا لا نتفق كلياً مع آراء هؤلاء النقاد. فمثل هذا الأحداث التي يتحدث عنها هؤلاء المعترضون، تخلق جواً يمهد تمهيداً لما سيقع في الرواية، فمثلاً يربط دور نفيسة جواً للكارثة المقبلة. وكذلك أن منظر مقتل شيخ الخفراء يمهد تمهيداً واضحاً لمقتل هنادي. على هذا النحو أن الرابطة بين الشخصيات وبين البيئة المحيطة بها ليست مفقودة كما ادعى البعض وإنما هي رابطة قوية رائعة تضيف إلى فنية هذه الرواية. فالشخصيات الفرعية مثل زنوبة و"خضرة" وحتى "نفيسة" التي يجدها البعض غير ضرورية فلها طرافة الشخصيات اللصومية التي نجدها في روايات سيرفانتيس (Cervantes: 1547-1616) وفيلدنغ (Fielding: 1717-1754) وديكنز (Dickens: 1812-1870) وغيرهم^{١٤}

إن لغة هذه الرواية فصيحة أنيقة غير أن تبدو فيها في أكثر الأحيان سيطرة المؤلف على الحوار كله حتى لا نستطيع أن نميّز بين لغة الشخصيات المثقفة وغير المثقفة. وأوضح مثل لذلك ما تقول آمنة الفتاة البدوية محدودة الثقافة: "على أن الأمر بين سيدي وبيني لم يلبث أن تعسر بعد يسر، وتعقد بعد سهولة واشتد بعد لين. فلكل شيء أجل، وللبصر أمد، وللمطاوله غاية تقف عندها ... الخ"^{١٥} ومن الحق أن في هذا الأسلوب جمال ورونق وروعة ولكننا عندما ننظر إليه كأسلوب روائي نجد فيه عدم الدقة والتحديد. وأنظر إلى مزيد من المبالغة والأطناب حيث يستعمل المؤلف جملاً طويلة مكان كلمة واحدة في تعبيره عن القطار:

"هذا الشيء المروع المخيف الغريب الذي يبعث في الجوششرا ونارا، وصوتا فخما، وصفيرا عاليا نحيفا والذي يسمونه القطار الذي يركبه الناس يستعينون به على أسفارهم كما يستعين أهل البادية والريف بالإبل حيناً، وبالحمير حيناً آخر وبالأقدام في أكثر الأحيان"^{١٦}

قد بقيت هذه عادة المؤلف في أكثر مؤلفاته القصصية لعل سبب كونه أعمى،

غير أنّ الدكتور علي الراعي يدافع طريقة المؤلف هذه قائلاً: إن دعاء الكروان ليست رواية واقعية بحته بل هي رواية شعرية خطابية فلا يوبه لها إن لم تشكل الواقع" ^{١٧} فإذا قبلنا هذا التعبير إلى حدّ ما وافقنا مع أنّ لاختيار المقاييس الواقعية لهذه الرواية ليس أي تبرير ولكن لا مفر لنا من أن نعتزف بأن على كل رواية فنية واجب أن تتوفر فيها واقعية العرض أو واقعية المحتوى على الأقل. ^{١٨} فإذا فقدت كلتاها في الرواية فهو نقص فني فيها يمكن أن يؤثر على فنيتهما جميعاً. ومن مزيد نقائص أسلوب هذه الرواية هو أنّ فيه تنافر واضح حيث يتكلم جميع الشخصيات بلغة واحدة وهي لغة المؤلف ولا بلغتهم كما كان يتوقع. ومع ذلك نجح المؤلف أحياناً حينما ترجم بعض التعبيرات الشعبية إلى اللغة الفصحى على نحو ما نعرف من قول زنوبة الدلالة "ها أنتن أولاء بيننا منذ أمس، وما سمعنا لكن صوتنا ولا عرفنا من أمركن شيئاً". فأكثرنا نعرف أن هذا التعبير تعريب للاصطلاح العامي الشديد "وانتوايه يا ادلعيدي" ^{١٩}

وفي الأخير نعتزف بأن رواية "دعاء الكروان" رواية واقعية من الدرجة المتوسطة تصوّر جهالة القرية البدوية ومشاكل الطبقة الكادحة تصويراً واقعياً فنياً. وإنها محاربة ضد عادة الثأر التي كانت انتشرت في أرياف مصر مسببة إراقة الدماء البريئة وإزهاق النفوس الذكية. وفي نفس الوقت نجح المؤلف في الكشف عن وعي الطبقة العليا وتعاطفها مع أبناء الطبقة الفقيرة. وهذه الفكرة قد تركزت أولاً حول "خديجة" بنت المأمور وبعد ذلك حول الباشمهندس الذي كان في أول أمره مادياً أثماً يعيش ليومه ولنزواته فقط ولكن حينما أصبح واعياً تغيرت نظرته نحو الإنصاف والحب وأصبح إنساناً محباً كريماً، فيه شرف وأمل حتى استطاع أن يغير فتاة منتقمة إلى فتاة محبة بموقفه العاطفي المؤثر. ولقد امتازت هذه الرواية ببنائها الفني المشتغل على تسلسل الأحداث ونمو الشخصيات بطريقة طبيعية فنية، وعلى تأثير البيئة على الشخصيات تأثيراً فعالاً. وكذلك امتازت بأسلوبها الرائع العذب الذي يتيحها عظمة وروعة ورونقاً كاملاً، وإن يوجد فيه أحياناً عدم الواقع إلا أنه يعوّض ذلك من موسيقى اللفظ وجلال التعبير وروعته وجماله. ^{٢٠}

المراجع والمصادر

١. هذه رواية طه حسين ظهرت سنة ١٩٣٤م
٢. "Literary Criticism", Macmillan India Press, Madras-
First Edition 1981, p.82
٣. انترنت: المقالة بعنوان شخصيات قصة دعاء الكروان لطف حسين: تاريخ: ١٢-٠٩-٢٠١٤م.
٤. طه حسين: دعاء الكروان،
دار المعارف بمصر (بدون تاريخ) ص: ١-١٦١
٥. أحمد هيكل: الأدب القصصي والمسرحي في مصر،
دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية، سنة ١٩٧١م، ص: ٢٢٣ و
Hamdi Sakkut: The Egyptian Novel and its Main Trends
Dar Al-Maaref, Cairo – 1971, p.33-4.
٦. دعاء الكروان، ص: ١٤-٥
٧. الأدب القصصي والمسرحي في مصر، ص: ٣٢٣
٨. The Egyptian Novel and its Main Trends, p. 33
٩. محمد مندور: في الميزان الجديد،
مطبعة نهضة مصر الفجالة، القاهرة، ط: ٣، ص: ٥٣، ٥٦ و ٨٨
١٠. علي الراعي: دراسات في الرواية المصرية،
المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر،
يونيو سنة ١٩٦٤م، ص: ١٤٨-٩
١١. في الميزان الجديد، ص: ٥٢
١٢. دعاء الكروان، ص: ٧٦ و ٧٧
١٣. في الميزان الجديد: ص: ٥٢
١٤. دراسات في الرواية المصرية، ص: ١٥٤-٥
١٥. دعاء الكروان، ص: ١٤٣
١٦. نفس المرجع، ص: ١٦
١٧. دراسات في الرواية المصرية، ص: ١٤٠-١
١٨. The Egyptian Novel and its Main Trends, p. 32
١٩. في الميزان الجديد، ص: ٥٤-٥
٢٠. The Egyptian Novel and its Main Trends, p. 36